القدس
في ذاكرة الرحالة المغاربة والأندلسيين (الأثر العلمي)
Jerusalem in the Magherbis and Andalusian Traver's Memoir (Scientific Influence)

فاطمة قيلال
طالبة سنة رابعة دكتوراه (ل. م.د)
قسم اللغة والأدب العربي بجامعة تلمسان
إشراف: أ.د/ محمد زمري

ملخص:

تعتبر مدينة القدس من الحواضر العالمية العريقة التي حظيت باهتمام كبير عبر التاريخ، ولا غرور في ذلك، إذا استحضرنا الثقل الديني والعلمي لبيت المقدس، ومكانتها المتميزة لدى أصحاب الديانات السماوية الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية، كما تحدثت عنها الكتب السماوية: (القرآن الكريم والإنجيل والتوراة)، كما تحدثت عنها كتب الرحالة المسلمين وغير المسلمين ومذكرات الحجاج المسيحيين وكتب الأدب الجغرافي وغيرها.

وقد أخذت هذه الحاضرة المقدسة جانبا كبيرا من الأهمية عند الرحالة المغاربة والأندلسيين، خاصة في الجانب العلمي، لأن كلب العلم شكل إحدى أهم الدواعي لرحلة المغاربة والأندلسيين إلى بيت المقدس، من اجل امتلاك ناصية تخصصات افتقدها الوسط العلمي المغربي والأندلسي.

Abstract

Jerusalem or Al-Quds one of the oldest city, has beyond the shadow of a doubt, enjoyed a distinguish consideration over history, for its religions and scientific weight, and its exceptional position in Islam, Judaism and Christianity, it is mentioned in the holy books (The Quran, The Bible and the Torah), and reported by Muslim travelers throughout their books and the memoirs of Christian pilgrims and geographical literature.

This holy city has took an important part among the Maghrebis and the Andalusian, especially in the scientific field, insofar as the pursuit of science was the main reason that leads the Maghrebis and Andalusian to pilgrims to Jerusalem; to acquire the leading

missing specialties in the scientific Maghrebis and Andalusian milieu.

عرف الإنسان الرحلة منذ الحياة على الأرض، وحملته اليابسة، وارتبط بها وأحبها لما وفرته له من أمن واستقرار، إلا أنه قد يتعرض لعارض يدفعه لهجر وطنه فيغادره، بحثا عن الكلأ والماء، وهربا من مصيبة كظلم حاكم أو أمير أو يأسا من المجتمع، وما قد حل به من حروب ونزاعات محلية، وظروف اجتماعية قاسية، وويلات ونكبات (1).

وقد كانت الرحلة مجالا رحبا، ينطوي على علاقات إنسانية، ضاربة في جدور التاريخ السحيق لهذا الكون، منذ المحاولات الأولى للكائن البشري في السيطرة على الطبيعة، وهي محاولات نرى فيها صورا صادقة لحياة الإنسان القديم، وصفحات من جهاده، غذا ينفض عنه ثياب الدعّة ويرتدي ثوب الارتحال والتجوال، ليمخر عباب البحار، ويتجشم أعظم المشاق، ويسر أخبار العرب والعجم، ويجمع التليد والطريف مما يقع عليه بصره من مشاهدات، ويسجل تراث أمم وحضارات (2).

وقد حث الإسلام على الرحلة، وشجع الناس عليها، كونها تعود عليهم بمنافع في حياتهم العلمية، والعملية، والدينية، وهي منافع ترتبط ارتباطا وثيقا بالدوافع الكثيرة، التي تدفع الإنسان إلى القيام بالرحلة، حتى أن الله تعالى خفف عليه بعض العبادات كالصلاة والصوم، في سبيل إنجازها من غير حدوث للضرر، أو المشقة، وقد اخبرنا القرآن الكريم عن كثير من الأنبياء الذين اعتنوا بالرحلة، والتي ارتبطت لديهم بقضايا التربية والتعليم، والجهاد والتفكر، والاعتبار والدعوة إلى الله، وتطبيق شرعه سبحانه في الأرض، ومن هؤلاء الأنبياء الذين ذكر الله أسفارهم في القرآن: إبراهيم، إسماعيل ولوط، وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وداوود وسليمان وعيسى ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وكذلك رحلة إخوة يوسف، وذي القرنين، والعبد الصالح (الخضر) عليهم السلام. وتبدوا عناية ديننا الحنيف بالرحلة، من خلال وجود ذكرها لفظا أو معنى، مرات عدة في القرآن الكريم، والحديث الشريف، إلا أن لفظة الرحلة (3)، ورد مرة واحدة في القرآن الكريم، في سورة قريش التي يقول فيها تعالى: لإيلاف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)(4).

وهنا ارتبطت الرحلة بعادة أهل مكة في القيام برحلتي الصيف والشتاء إلى الشام واليمن، بغرض اقتصادي حيوي وهو التجارة (5).

كما شجع الرسول صلى الله عليه وسلم على الرحلة في طلب العلم فقال: "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة"(6).

ولا يبتعد مفهوم الرحلة اصطلاحا عن مفهومها لغة، عدا يشتركان في الصفة اللازمة بفعل الارتحال، وهي الحركة (7).

وقد عرف التراث الجغرافي العربي أنواعا من أدب الرحلة، يتميز بعضه عن بعض بالسبب الدافع إليها، فمنها رحلات الحج أو الرحلات الحجازية، مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتأتي في مقدمة المدن المقصودة للزيارة لما لها من القدسية والمكانة الدينية والعلمية على امتداد

التاريخ الإسلامي، وتأتي في المرتبة الثانية من حيث الكم، مدينة القدس الشريف، التي كانت مقصدا للرحالة ومزارا ومتبركا وموئلا لطلب العلم والمجاورة، لما لها من مكانة ولارتباطها بالأرض المقدسة(8)، لقوله تعالى: "يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين" (9) والمقصود بالأرض المقدسة مدينة بيت المقدس.

وقوله تعالى: "ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين" (10) والمقصود أيضا في هذه الآية الكريمة بالأرض المباركة القدس الشريف وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما هي بيت المقدس لأن الله تعالى بعث فيها أكثر الأنبياء، كما انها عذبة الماء كثيرة الخصب (11).

ووردت العديد من الآيات الكريمة التي دلت على عظم مكانة بيت المقدس والمسجد الأقصى منها على سبيل المثال، لا الحصر، قوله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير" (12).

وقد دلت هذه الآية الكريمة على عظم مكانة بيت المقدس وعلو شأنها ورفعة قدرها وفي ذلك قال الإمام السيوطي رحمه الله: "فلو لم يكن لبيت المقدس من الفضيلة غير هذه الآية لكانت كافية وبجميع البركات وافية، لأنه إذا بورك حوله فالبركة فيه مضاعفة، ولأن الله تعالى لما أراد أن يعرج بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إلى سمائه جعل طريقه عليها تبيانا لفضله، وليجعل له فضل البيتين وشرفهما وإلا فالطريق من البيت الحرام إلى السماء كالطريق من بيت المقدس إليها (13).

أما في السنة النبوية الشريفة فقد روى المحدثون عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: "قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أولا. قال المسجد الحرام، قال ثم أي؟ قال المسجد الأقصى، قلت كم بينهما؟ قال أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة فصل فإن الفضل فيه" (14). وقد روي أن الملائكة بنو المسجد الحرام قبل خلق آدم بألفي عام فكانوا يحجونه وقال الإمام أبو العباس القرطبي يجوز أن يكون بناه يعني مسجد بيت المقدس الملائكة بعد بنائها البيت المعمور بإذن الله تعالى (15).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "لا تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا" (16).

وعن معاذ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معاذ إلى الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي من العريش إلى الفرات رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة فمن اختار منكم ساحلا من سواحل الشام أو بيت المقدس فهو في جهاد إلى يوم القيامة (17).

وقد كانت مكانة القدس عند أصحاب الديانات السماوية الثلاث: اليهودية، المسيحية، الإسلام ولا زالت تتسم بالقداسة وبخاصة عند المسلمين، فقد حظيت باهتمامهم قبل الفتح وبعده واعتنى بها المحدثون، إذ أخذت الأحاديث في فضله حيزا كبيرا في كتبهم

ومصنفاتهم الحديثة، واعتنى به السلف الصالح فصنفوا المصنفات، وألفوا المؤلفات في تاريخه وفضائله.

والقدس مدينة عربية النشأة، إسلامية التاريخ/ وإنسانية الحضارة، كانت ولا زالت رمزا يعبر عن تاريخها العربي الإسلامي، وعن رسالة الإيمان والإشعاع الروحي، ومعاني السلام والتعايش بين الرسالات السماوية في ظل سماحة الإسلام وتسامحه (18).

كما وقد ترددت هذه المدينة في التاريخ حاملة عدة أسماء منها: أوشليم، يروشالايم، أوشاميم (Aushamem)، هيروسوليما، جيروسالم... وكلها تحريف للاسم الأول، بالإضافة إلى إيليا، بيت المقدس... يبوس، صهيون (19).

فالقدس إذا جاء اسمها من الله، من السماء، أما أورشليم فقد جاء اسمها من الإنسان، من الأرض، وأن أورشليم لم يرد في القرآن الكريم، بل جاء فيه اسم "الملك القدوس السلام"، واسم الأرض المقدسة واسم المسجد الأقصى، فالقدوس اسم من أسماء الله الحسنى، والقدس هي بيت الله، ومن هنا نعتت القدس (20).

وقد كانت القدس مقصدا رئيسيا للرحالة العرب والمسلمين طوال عصور التاريخ التي تلت الفتح العمري للمدينة، والسبب الرئيسي الذي حذا بالمسلمين وغير المسلمين كذلك على زيارات المدينة المقدسة هو المكانة الفريدة التي اختصت بها المدينة إضافة إلى أن القدس كانت في بعض فترات التاريخ مركزا علميا ذا شأن، كان يؤمه علماء المسلمين من مختلف أنحاء العالم (21).

والرحلات العلمية هي من أشهر أنواع الرحلات وأكثرها شيوعا ويتعدد هذا النوع بتعدد أغراضه ومقاصده. وقد جاء في كتاب الرحلات للشيخ محمد الخضر حسن (ت 1958 م) الذي جاب أقطار المشرق العربي للقاء العلماء والتعالم على أيديهم: " إن الإسلام لم يدع وسيلة من وسائل الرقي إلا نبه عليها، وندب إلى العمل بها، وهذا شأنه في الرحلة، فقد دعا إليها راميا إلى أغراض سامية منها: طلب العلم... "(22) فجاب المسلمون الأوائل الأرض طلبا للعلم، وسعيا وراء الشيوخ، والعلماء، للنهل من علومهم، وفي التاريخ الإسلامي أمثلة كثيرة عن شغف السلف بالرحلة من اجل العلم، من ذلك قول الصحابي الجليل أبو الدرداء: "لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحدا يفتحها علي إلا رجل ببرك الغماد لرحلت إليه"(23).

كما كانت الرحلة في القديم رمزا للعالم والمتعالم، فيبدأ الطالب حياته العلمية بالأخذ عن شيوخ وطنه أو مدينته، ثم يرحل لاستكمال أمر تعليمه خارج وطنه ولم تقتصر الرحلات عند المسلمين على طلب العلم والأخذ عن الشيوخ، بل تعدت ذلك إلى نشر علومهم، ومعارفهم في المدن والأمصار، وتلقين دروسهم للراغبين في ذلك وهو ما يدخل في مجال الدعوة إلى الله وتعليم الإسلام، إذا كانت أكثر علوم السلف مرتبطة بالدين والحياة (24).

وكانت الرحلات من الأندلس والمغرب إلى المشرق، أكثر من رحلات المشارقة لديارهم، وذلك لوجود الكعبة المشرفة وبيت المقدس، ومنارات العلم في المشرق، حيث اتجهوا نحو المشرق لأداء فريضة الحج، فتأثروا بما وجدوه هناك من حضارات وعلوم، فالمشرق قبلة القصّاد، وكعبة طلاب العلم والحج بفضل أماكنها المقدسة، ومراكزها

العلمية، وقد هيأت هذه الرحلات الالتقاء بالأئمة والعلماء في المدينة المنورة وبيت المقدس، والأخذ عنهم وتبادل المعارف والعلوم والثقافات معهم والحصول على الانجازات، فترك علماء المشرق أثرا كبيرا في التكوين الثقافي للرحالة الأندلسيين والمغاربة مثلما ترك الرحالة الأندلسيين آثارا علمية وثقافية عميقة في العلماء الذين التقوا بهم (25).

ومن بين الرحالة الذين يؤيدون هذا الرأي ابن جبير، فما شاهده من ازدهار وتقدم في مختلف العلوم والمعارف في بلاد المشرق جعله يدعو المغاربة إلى طلب العلم في بلاد الشام قائلا:

"فمن شاء الفلاح... فليرحل إلى هذه البلاد ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات مثيرة، فأولها فراغ البال من أمر المعيشة، وهو أكبر الأعوان وأهمها: فإذا كانت الهمة، وقد وجد السبيل إلى الاجتهاد... فهذا المشرق بابه مفتوح لذلك فادخل أيها المجتهد بسلام (26). كما أورد المقري 280 شخصا من الأندلسيين والمغاربة الذين قاموا برحلات علمية إلى المشرق، مرفقا ذلك باعتراف منه انه لم يستوعب كل الأسماء، ولاحظ كراتشوفسكي بحق أن طالع الرحلة في طلب العلم طغى على ما عداه من أنواع الرحلات الأخرى في المغرب منذ القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي (27).

وقد ارتبط أهل المغرب الإسلامي بالقدس الشريف منذ اعتناقهم الإسلام، لتأخذ هذه الحاضرة المقدسة مكانتها في برنامج الرحلة المشرقية للعديد من رحالة هذا الصقع الإسلامي، ومنهم الأندلسيون والمغاربة، ولتجلية طبيعة الصلات المغربية الأندلسية مع بيت المقدس وإبراز الجانب العلمي من الوجود المغربي الأندلسي بهذه المدينة، حاولنا من خلال هذا المقال الوقوف على الأثر العلمي الذي تركته هذه الحاضرة أو بالأحرى على علماء ورحالة المغرب العربي (أي الوجود المغربي الأندلسي في القدس من الناحية العلمية) (28).

لقد وفد المغاربة إلى مدينة القدس مجاورين، بعد أداء فريضة الحج، منذ مئات السنين، كما قدم إليها آخرون منهم بعد سقوط الأندلس عام 898 هـ / 1492 م، وتعددت المناطق التي قدموا منها، فمنهم المراكشيون، التونسيون والجزائريون، وأحيانا يشار إلى الواحد منهم باسم مدينته مثل المكناسي والتلمساني، وتجدر الإشارة إلى أن المغاربة أقاموا في حي خاص بهم في القدس، سمي حي المغاربة أو محلة المغاربة، أو حارة المغاربة، وتولى زعامتهم شيخ يعينه أمير اللواء، يمثلهم في المحكمة الشرعية بشتى قضاياهم ومصالحهم المختلفة، ومن أبرز شيوخهم محمد عربي بن أحمد المغربي، والحاج قاسم المغربي، والحاج غيث بن أبي زيان المغربي شيخ السادة المغاربة بالقدس، وكان الشيخ أحيانا كثيرة ناظرا على أوقافهم التي تعددت داخل المدينة، وممن تولى النظر في أوقافهم السيد أحمد بن محمد المغربي التلمساني والحاج محمد البسكري المغربي سنة (1105 هـ / 1693م) (29).

فقد لقي المغاربة والأندلسيون المعاملة الحسنة والدعم الكافي من الحكام الأيوبيين والمماليك وكذلك من الناس العاديين في بلاد الشام عموما ومدينة القدس خصوصا، ففي العصر الأيوبي، اهتم الملك الفضل بن صلاح الدين (ت 622 هـ / 1225 م) في شؤون المغاربة في مدينة

القدس، فبني لهم مدرسة عرفت باسمه، الأفضلية سنة (592 هـ / 1195 م)، وقد أصبح للمغاربة والأندلسيين دور هام في تولي المناصب الدينية والتعليمية، واستمرت مدينة القدس تستوعب أكبر عدد ممكن من هؤلاء المغاربة والأندلسيين في العصر المملوكي الأخير (القرن الخامس عشر)، بسبب مكانة بيت المقدس الدينية، ولتوفر سبل العيش والوظائف الدينية والتعليمية في المؤسسات التابعة للمغاربة والمالكية بشكل خاص(30).

ومما يسترعي الملاحظة أن عدد العلماء وطلبة العلم في مدينة القدس كان بازدياد مضطرد حتى أواخر العصر المملوكي، هذا يعكس أهمية مدينة القدس كعامل جذب في العصرين الأيوبي والمملوكي وارتفاع مكانتها لتوفر الظروف المناسبة للحركة العلمية فيها (31).

وهذا جدول يمثل توزيع علماء بيت المقدس حسب موطنهم الأصلي وحسب سنة الوفاة في العصرين الأيوبي والمملوكي:

الفترة الزمنية الأصل	قبل سنة 658هـ /1260م	659هـ /1261م 803هـ /1400م	بعد سنة 803هـ /1400م	غير معروف	المجموع
المغرب و الأندلس	1	5	24	1	31

نتبين من خلال هذا الجدول أن عدد العلماء المغاربة والأندلسيين الذين زاروا القدس اخذ بالازدياد خلال العهد المملوكي، أما بالنسبة للعدد القليل الذي نتبينه في الجدول في العصر الأيوبي، أي قبل عام (658 هـ/ 1260 م) يعود ربما للظروف السياسية التي سادت مدينة القدس خلال تلك الفترة فعلى الرغم من إنشاء ما يقارب إحدى عشرة مؤسسة تعليمية في القدس خلال العصر الأيوبي، فإن هذا العدد يعتبر قليلا بالمقارنة مع عدد المؤسسات التي أنشئت في العصر المملوكي (32).

لقد كان العلم أبرز أهداف الرحلة، لهذا أكثر الرحالة من التحدث عن حلقات العلم التي كانت تعقد في بداية الأمر بالمساجد والزوايا والخوانق والمكتبات والبمارستانات، ثم أخذت تنشأ بعد ذلك مؤسسات ومراكز تعليمية مستقلة، وكانت المساجد والخوانق بالإضافة إلى أنها مكان للتعبد استعملت خارج أوقات الصلاة مركز النشاط عدد من الفرق الإسلامية: (الكرامية، المعتزلة والمشبهة)، وقد اطلع ابن عربي من خلال هذه المجالس على علوم ثلاثة: علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف التي هي عمدة الدين، ويبدوا ان مثل هذه المجالس تعد وسيلة لاستعراض القدرات الذهنية، والمواهب الإبداعية (33). وقد وفد هذا الشاب الأندلسي من أهل أشبيلية إلى القدس في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري، وبالتحديد سنة (485 هـ / 1092م)، وقد كان له جور كبير في إبراز وإعطاء صورة حية للحياة العلمية، والحركة الفكرية في بيت المقدس. وكان الحكم حينذاك بيد السلاجقة الذين شهد عهدهم ازدهارا علميا وإحياء ثقافيا، وخاصة في علوم الفقه والحديث وغيرها من العلوم الإسلامية. ووجد ابن عربي نفسه إمام عدد كبير من العلماء والفقهاء

الذين كانوا يمارسون نشاطهم الفكري في المسجد الأقصى، ويعقدون حلقات الدرس والمناظرة حيث قرر البقاء في بيت المقدس، وكلب من والده أن يذهب إلى الحج وحده، ويبدوا هذا واضحا في قوله لأبيه مشيدا بالحرمة العلمية في بيت المقدس: "إذا كانت لك نية في الحج فامض لعزمك، فإني لست يرائم عن هذه البلدة حتى اعلم علم من فيها، وأجعل ذلك دستورا للعلم وسلما إلى مراقيها".

وهذا يؤكد أن ابن عربي أصر على البقاء في القدس، والتفرغ للاشتغال بالعلم والدراسة (34). وقد ذكر ابن عربي أنه زار مديرية الشافعية بباب الأسباط، والتقى بمجموعة من العلماء في اجتماعهم للمناظرة، إلى آخرها، فتعلق بذلك الجو العلمي، وما يدل على ذلك قوله: "فألفيت بها جماعة علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد يحيى"(35) الذي كان استخلفه عليهم شيخنا الإمام الزاهد نصر بن إبراهيم النابلسي المقدسي، وهم يتناظرون على عادتهم. وكان أبو بكر بن العربي يحرص على حضور حلقات التناظر بين الطوائف في مدارس الحنفية والشافعية (36). كما تحدث عن تلك المناقشات والمحاورات والمناظرات التي كانت تدور بين علماء بيت المقدس من المسلمين والنصارى واليهود في مجالس بحث ومدارسة، وذكر انه حضر مجلسا عظيما تناظر فيه حبر اليهود المعروف بالتستري والعالم الفقيه الطرطوشي (37). كما ذكر أيضا موضعا آخر في ساحة المسجد الأقصى كان له أثر في الحركة الفكرية، ويقال له الغوير بين باب الأسباط ومحراب زكريا، حيث كان العلماء يتناظرون في ذلك المكان (38).

لقد سمع ابن العربي بالأندلس، وبالإسكندرية، وبمصر ومكة، وسمع ببيت المقدس شيخه، أباب بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، وأبا القاسم مكي بن عبد السلام المقدسي الرميلي وغيرهم من العلماء والأدباء، فأخذ عنهم الكثير من العلوم وخاصة الفقه والأصول، والأدب والنحو والتواريخ (39). والواضح هنا أن رحلة ابن العربي إلى بيت المقدس وإصراره على المكوث بها مدة من الزمن، كان دليلا قاطعا وقويا على أن هذه المدينة كانت من المراكز الفكرية المهمة في العالم الإسلامي، قبيل الاحتلال الصليبي، كما اجتذبت مدينة القدس باعتبارها مركزا علميا، العديد من الأندلسيين، من تخصصات علمية متباينة، من مدن اندلسية مختلفة ويمكن تتبع ذلك من هلال استعراض بعض أسماء الرحالين على سبيل المثال لا الحصر، انظلاقا من الجدول التالي (40):

اسم العلم	السنوات (هـ)			الموطن	التخصص العلمي
	ميلاد	رحلة	وفاة		
الحسن بن أحمد الغافقي	449 هـ	471 هـ	–	ميورقة	الحديث
صادق بن خلف الأنصاري	–	452 هـ	470 هـ	طليطلة	الحديث
عبد الله بن محمد بن العربي	435 هـ	458 هـ	493 هـ	اشبيلية	حديث، فقه، أدب، لغة

علي بن خلف العبيسي	417 هـ	480 هـ	498 هـ	قرطبة	القراءات، الحديث
محمد بن عبد الله بن العربي	468 هـ	485 هـ	543 هـ	اشبيلية	حديث، فقه، تفسير، كلام، تصوف
علي بن أحمد الكناني	477 هـ	499 هـ	569 هـ	قرطبة	القراءات
الحين بن خلف الأموي	–	–	500 هـ	بلنسية	الحديث
محمد بن الوليد الطرطوشي	451 هـ	–	520 هـ	طرطوشة	حديث، فقه، أصول، تفسير

ويبدو من خلال المعطيات الإحصائية للرحلة العلمية الأندلسية إلى الشام، أن هذه المحطة تبوأت الرتبة الثانية بعد دمشق (41).

ومن بين الرحالة الذين زاروا القدس أبو عبيد البكري الذي قال عن الحياة العلمية: "لم أرى في هذا البلد مع شرفه واستشهاره من هو أهل لأخذ العلم عنه إلا شيخا هو قاضي المدينة والذي يلقب بدر الدين وهو محمد بن إبراهيم بن سعد بن جماعة (42).

كما زار القدس سنة (738 هـ) الرحالة الغرناطي البلوي(43) وهي تعد من أهم الرحلات التي أبرزت الجوانب المعرفية والنشاط العلمي في بيت المقدس، ومن بين ما قاله في هذا الإطار: "هذا إلى جانب ما أطلعه الله في ذلك الأفق المنير من بذور العلماء، وامتنع من صدور الأولياء الذين وردوا على طاهر تلك البقاع، وقصدوا إلى العبادة فيها والانقطاع، فسن الله إلى البغية ولقيهم أجمعين ورويت عنهم، ولما كثر علي تعدادهم، وقل علي نظارهم وأندادهم، انتقيت منهم ها هنا خمسة يتبرك بذكرهم وتعطر الأندية بشكرهم، ثم يذكر هؤلاء الخمسة ويترحم لهم(44). ووصف مدينة القدس قائلا: "هي بلدة الأفق المنير ونجمة، والنجم الذي لا تمتطي صهواته، وصلناها والليل في سن الاكتهال وأيدينا ممتدة بالشكر لله تعالى والابتهال... ظل ظليل، وماء سلسبيل، ورياضات تحيي النفوس بنسيمها العليل" (45).

وقد تحدث في قسم من رحلته عن الحركة العلمية والعلماء في القدس (46). حيث اختار مجاورة المسجد الأقصى وآثر ملازمته حتى تسنى له ملاقاة العلماء والفقهاء، فلما كثر عليه تعدادهم، وقل عليه نظراؤهم وأندادهم انتقى منهم خمسة يتبرك بذكرهم وتعطر الندية بشكرهم على حد تعبيره. كما كان للقاضي ببيت المقدس أثر في إذكاء حماس البلوي في اختيار مجاورة المسجد الأقصى، ثم يؤكد البلوي في أكثر من موضع على أن أغلب لقاءاته مع العلماء بالمسجد الأقصى، وهذا ينم عن حركة النشاط العلمي للمسجد الشريف في ذلك الوقت (47).

وظل معتكفا في المسجد الأقصى في شهر رمضان ملتزما الأوراد والأذكار والتسبيح والاستغفار، وكان رأيه وعادته حضور مجالس التدريس من بعض الأئمة الأعلام حتى

يأخذ منهم أفانين العلوم الدينية سواء بسماع اللفظ ونقل الخطة وقراءة اللفظ، وإثبات السنة في برنامج روايته (48).

ولما زار الرحالة ابن بطوطة القدس في العصر الأيوبي، (741 هـ / 1340م) ذكر أن بيت المقدس كان عامرا بالعلماء الوافدين إليه من مختلف الأقطار الإسلامية فقال: "فمنهم قاضي العالم شمس الدين محمد بن سالم ألغزي.. وهو من أهل غزة وكبريائها، ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسي، ومنهم المحدث المفتي شهاب الدين الطبري، ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس، ومنهم الشيخ الزاهد أبو علي حسن المعروف بالمحجوب من كبار الصالحين ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي، ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرز الروم وهو من تلامذة الرفاعي، صحبته ولبيت منه خرقة التصوف (49).

إن همة بعض الأندلسيين تجاوزت مستوى الاستفادة والأخذ العلمي في القدس إلى مستوى الإفادة والعطاء العلمي، وخاصة في مجال التدريس، فقد زاوج الأندلسيين بين الأخذ والعطاء العلميين بالقدس (50)، ويعد أبو بكر الطرطوشي أبرزهم، فيعد رحلته العلمية عبر مكة وبغداد والبصرة، دخل الطرطوشي بلاد الشام (480 هـ / 1088 م) وزار مدينة بيت المقدس عام (496 هـ) (51) وقد أجمعت المصادر التي ترجمت له أنه قضى الفترة التي عاشها في الشام يعلم الناس، فاقبلوا عليه، وأفادوا من علمه، ويتميز التكوين العلمي للطرطوشي بالمشاركة في علوم عدة وفنون شتى، فقد انخرط في الحديث، والفقه، والأصول، والتفسير، والزهد. ويعد مواطنه أبو بكر بن العربي المعافري من الطلبة الذين نهلوا من علمه، واستفادوا من حلقاته بالقدس، في موضع يسمى بالسكينة (52).

ومن بين العلماء المغاربة المشهورين الشيخ محمد بن محمد الطيب التافلاتي المغربي، والذي عين في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي مفتيا للحنفية في القدس، وله العديد من المؤلفات، كما اشتهر من المغاربة في القدس الشيخ محمد بن بدير المعروف بابن حبيش، وأصله من المغرب، جاء إلى القدس في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، اشتهر بعلمه وزهده وغزارة علمه (53).

وفي هذا المقام لابد لنا أن نذكر العالم أحمد بن محمد المقري التلمساني صاحب كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب"، الذي ألقى عدة دروس بالمسجد الأقصى والصخرة المنيفة أي قبة الصخرة (54).

ومن خلال هذا الجدول حاولنا جمع أسماء بعض العلماء المغاربة والأندلسيين الذين زاروا بيت المقدس:

الاسم واللقب	الموطن الأصلي	مجالات الدراسة والتدريس	المنصب ، المهنة	المذهب	تاريخ الوفاة
الشيخ عمر بن عبد الله بم عبد النبي المغربي المصمودي	المغرب		شيخ زاوية المغاربة	مالكي	بعد 700 هـ / 1300م
الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن احمد بن مثبت الأنصاري الغرناطي الندلسي	غرناطة الأندلس	القراءات الفقه	شيخ الخانقاه الكريمية	مالكي	746 هـ / 1345م
زين الدين عبد الرحمن بن الكرديسي المغربي	المغرب		من الأولياء الصالحين صاحب كرامات	مالكي	800 هـ / 1397م
الشيخ موسى المغربي	المغرب		صاحب كرامات	مالكي	800 هـ / 1397م
شهاب الدين احمد بن محمد بن علي بن مغيث الأندلسي	الأندلس	القراءات، الحديث	الإقراء (مقرئ) ببيت المقدس	مالكي	808 هـ / 1405م
الشيخ عبد الواحد بن جبارة المغربي	المغرب	القراءات، الفرائض، المحو، الأدب، الحساب	إمام الإقراء والتصدير في الأقصى، شاعر، أديب، مقرئ	مالكي	826 هـ / 1422 م 1423م
الشيخ عبد الله بن ابراهيم البسكري المغربي	المغرب	القراءات	الإقراء، التدريس والمشيخة بدار القرآن السلامية له مكاشفات وكراهات	مالكي	826 هـ / 1425م 1426م
الشيخ خليفة بن مسعود بن موسى المغربي الجابري	المغرب	الفقه ، التصوف	إمام المالكية بالأقصى مشيخة المغاربة صاحب مكاشفات و كرامات	مالكي	833 هـ / 1429م توفي بالقدس
شمس الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم بن مفلح القليقلي	قليقلة جلجولية	الحديث	قارئ حديث يقرئ الأطفال في جلجولية	شافعي	852 هـ / 1448م
شرف الدين عيسى بن محمد المغربي	المغرب	الفقه	القضاء في القدس من أكابر أهل العلم	مالكي	854هـ / 1450م

برهان الدين إبراهيم بن أبي المعالي منصور التلمساني	تلمسان المغرب		القضاء	مالكي	بعد 858هـ / 1404م
شهاب الديم احمد بن أبي الفرج عبد الرحمن التلمساني الحريري	تلمسان المغرب		القضاء	مالكي	يعد 867هـ / 1462م
أمين الدين سالم بن إبراهيم الصنهاجي	صنهاجة المغرب	الفقه	القضاء	مالكي	قبل 875هـ/ 1468م
شمس الدين محمد الزباحي	المغرب			مالكي	قبل 875هـ/1470م
شهاب الدين أحمد بن محمد بن الرباحي	المغرب	الفقه (العلم)	شاهد (العدول) مؤدن	مالكي	875هـ/1470م
شمس الدين محمد بن علي المغربي الفلاح	المغرب		كان من أهل العلم نيابة القضاء	مالكي	876هـ/1473م
حميد الدين محمد بن أبي عبد الله الحسيني البكري ابن المغربي	المغرب	القرآن الروايات	أول قضاة المالكية في الخليل، قضاء القدس قضاء طرابلس	مالكي	876هـ/1473م
محمد الدين محمد بن محمد بن احمد بن سليمان المغربي المقدسي (اين عوجان)	المغرب نشأ بالقدس	الفقه الشافعي	الإعادة بالصلاحية أصبح من فقهاء الشافعية	مالكي	880هـ/1475م
شهاب الدين أحمد بن محمد الحسيني	المغرب	القرآن	شاهد	مالكي	887هـ/1482
شمس الدين محمد بن محمد المصطفاوي	المغرب	القرآن		مالكي	887هـ/1482م
شمس الدين محمد بن عبد الرحمن	المغرب	القرآن القرءات	إمام، ناسك، مشيخة المدرسة القادرية مشيخة المغاربة	مالكي	889هـ/1484م

كمال الدين أبو البركات محمج بن شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ابن خليفة المغربي المقدسي	المغرب نشأ في القدس	القراءات الفقيه الحديث النحو	مشيخة السلامية بعد والده، إمامة جامع المغاربة بالأقصى	مالكي	/
شرف الدين يحيى بن محمد النصاري المغربي الأندلسي	الأندلس	الحديث الفقه العربية	قضاء المالكية في القدس	مالكي	895هـ/ 1489م 1490م
زين الدين عبد الكريم بن علي بن عبد الرحمن المغربي	الخليل المغرب	الروايات السبع القراءات، الفقه، الميقات، التصوف	الإقراء، نيابة الخطابة في الأقصى	شافعي	895هـ/ 1489م 1490م
جمال الدين بن عبد الله بن احمد المراكشي	مراكش المغرب		شيخ زاوية الجليل	شافعي قادري	895هـ/ 1489م 1490م
شمس الدين محمد بن علي بن الازرق	الأندلس	الفقه	قضاء غرناطة في الأندلس، قضاء المالكية في القدس	مالكي	896هـ/ 1490م 1491م
شرف الدين عيسى بن عمر الحسيني الشحيني المغربي	المغرب	القرآن الفقه التصوف	مشيخة المغاربة مشيخة زاوية المغاربة	مالكي	897هـ/ 1491م 1492م
شمس الدين محمد خليفة	المغرب	؟	روي عنه كرامات مشيخة زاوية المغاربة	مالكي	897هـ/ 1491م 1492م
الشيخ قاسم المغربي	المغرب	التصوف	مشيخة زاوية المغاربة	مالكي	898هـ/ 1492م
شمس الدين محمد بن خليفة بن مسعود المغربي، ثم المقدسي	المغرب نشأ في القدس	الحديث، الفقه، المالكي، التصوف	مشيخة المدرسة القادرية (مشيخة المغاربة)	مالكي	899هـ/1493م

يمكننا أن نستنتج من خلال هذا الجدول أن أتباع المذهب المالكي (55) في بيت المقدس غالبيتهم العظمى من أصل مغربي (شمال إفريقيا) أو أندلسي، ممن قدموا إلى المدينة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، إما بسبب عوامل الجذب وإما لعوامل الطرد من بلادهم. وقد قام الكثير من هؤلاء العلماء بتدريس العلوم الشرعية المذهبية، والملاحظ أيضا أن اغلبهم كانوا من المتصوفة.

ونستخلص من كل ما ذكر أن بيت المقدس عموما والمسجد الأقصى وقبة الصخرة كانا بمثابة جامعة يتوافد إليها طلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي، ليتلقوا العلم على أيدي علماء برعوا في العلوم المختلفة، مثل الفقه، والحديث، والتفسير، والتاريخ، وعلم القراءات، وقد تنوعت العلوم بتنوع العلماء بسبب الرحلات التي كانت تتم إلى القدس الشريف.

كما نلاحظ أن طلب العلم كان إحدى الدواعي المهمة لرحلة المغاربة إلى بيت المقدس، فإلى جانب الرغبة في تعميق التخصصات العلمية التي خرج بها الطلاب (الرحالة) من بلدانهم، كما تطلع بعضهم إلى امتلاك ناصية تخصصات يفتقدها الوسط العلمي المغربي.

وكون القدس كانت فضاء علميا تميز بالتباين العقدي، والتنوع المذهبي، فقد وفرت للمغربي فرصة التمكن من علوم طالما حرم منها في بيئته العلمية المغربية والأندلسية التي غلب عليا طابع الرتابة.

هوامش الدراسة:

1 – نوال عبد الرحمان الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، (1428 هـ / 2008 م)، ص 21.

2 – المرجع نفسه، ص 17.

3 – سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري (دراسة في النشأة والتطور والبنية)، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2006م، ص 15.

4 – القرآن الكريم، سورة قريش، الآية واحد، رواية ورش.

5 – سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، دراسة في النشأة والتظور والبنية، ص 16.

6 – مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار المتب العلمية، بيروت، 1992م، ج17، ص 19.

7 – سميرة انساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري، ص 20.

8 – صحيفة الوسط البحرينية، العدد 889، الجمعة 11 فبراير 2005 م الموافق لـ 02 محرم1426 هـ.

9 – سورة المائدة، الآية (21)

10 – سورة الأنبياء، الآية (71)

11– ماهر حامد الحولي، المكانة الدينية للمسجد الأقصى، الجامعة الإسلامية بغزة، 1430 هـ / 2009 م، ص 40.

12 – سورة الإسراء، الآية (1).

13– ماهر خامد الحولي، المكانة الدينية للمسجد الأقصى، ص 3.

14 – النووي، صحيح ميلم، باب المساجد، مج3، دار الفكر للطباعة والنشر، 1401 هـ / 1981 م. ص2.

15 – مجير الدين الحنبلي العليمي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق يونس عبد المجيد نباتة، دار النشر مكتبة دنديس، عمان، 1420 هـ / 1999 م، ص 29.

16 – المصدر نفسه، ص 231.

17 – المصدر نفسه، ص 228.

18 – إسحاق رباح، تاريخ القدس عبر العصور، كنوز المعرفة، الأردن، عمان، الطبعة الأولى، 2010 م، ص 7.

19 – محمد محمد حسن شراب، موسوعة بيت المقدس والمسجد الأقصى (التاريخ/ الآثار/ إعلام الأمكنة والرجال)، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، الطبعة الأولى، 2003 م، ص 120.

20 – إسحاق رباح، تاريخ القدس عبر العصور، ص 58.

21 – عزت جرادات، تاريخ القدس وحاضرها، دار النفائس، الطبعة الولى 1426 هـ / 2005 م، ص 167.

22 – سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري دراسة في النشأة والتطور والبنية، ص 24.

23 – المرجع نفسه، ص 25.

24 – المرجع نفسه، ص 26.

25 – نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص 199.

26 – ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ص 258.

27 – حسين نصار، ادب الرحلة، نمتبة لبنان، الطبعة الأولى، 1991، ص 34.

28 – مبارك لمين، جوانب من الوجود الأندلسي في القدس الوسيط، جامعة ابن زهر، المغرب، ص1.

29 – احمد حسين عبد الجبوري، القدس في العهد العثماني (1640م / 1799م).

30 – حاتم محمد محاميد، دراسات في تاريخ القدس الثقافي في العصر الوسيط، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 2009 م، ص113.

31 – المرجع نفسه، ص 114.

32 – المرجع نفسه، ص 115.

33 – نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى النهاية القرن التاسع الهجري، ص 78.

34 – رشاد المدني، بيت المقدس في عيون الرحالة المسلمين والأجانب في القرنين الخامس والسادس الهجريين، الجامعة الإسلامية كلية الآداب، غزة، جمادى الآخرة 1432 هـ / ماي 2011 م، ص 1070.

35 – نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص 83.

36 – المرجع نفسه، ص 84.

37 – رشاد المدني، بيت المقدس في عيون الرحالة المسلمين والأجانب في القرنين الخامس والسادس الهجريين، الجامعة الإسلامية كلية الآداب، غزة، جمادى الآخرة 1432 هـ / ماي 2011 م، ص 1071.

38 – نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص 84.

39 – رشاد المدني، بيت المقدس في عيون الرحالة المسلمين والأجانب في القرنين الخامس والسادس الهجريين، الجامعة الإسلامية كلية الآداب، غزة، جمادى الآخرة 1432 هـ / ماي 2011 م، ص 1071.

40 – مبارك لمين، جوانب من الوجود الأندلسي في القدس الوسيط، جامعة ابن زهر، المغرب، ص8.

41 – المرجع تفسه، ص 9.

42 – إبراهيم الفني، القدس في العصر البيزنطي والإسلامي (364 هـ / 1917 م)، ص 179.

43 – نواف عبد العزيز الحجمة رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري (12 – 14 هـ)، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 2008، ص 102.

44 – نوال عبد الرحمن شوابكة، ادب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ص 82.

45 – المرجع نفسه، ص 286.

46 – إبراهيم الفني، القدس في العصر البيزنطي والإسلامي (364 هـ / 1917 م)، ص 179.

47– نواف عبد العزيز الحجمة رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري (12 – 14 هـ)، ص 643.

48 – المرجع نفسه، ص 664.

49 – ابن بطوطة الطنجي، تحفة النظّار في غرائب الأمطار وعجائب الأسفار/ قدم له وعلق عليه أبو المظفر سعيد بن محمد الساري، دار الكتاب العربي، دمشق، القاهرة، الطبعة الأولى، 2012 م، ص 70.

50 – مبارك لمين، جوانب من الوجود الأندلسي في القدس الوسيط، ص 11.

51 – المقدسي، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق أحمد الخطيمي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (1415 هـ / 1994 م)، ص 363.

52 – مبارك لمين، جوانب من الوجود الأندلسي في القدس الوسيط، ص 11.

53 – أحمد حسين عبد الجبوري، القدس في العهد العثماني (1646 م – 1799 م)، ص 229.

54 – المقري التلمساني، نفح الطيب من غضن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، شرحه وضبطه وعلق عليه مريم قاسم الطويل، يوسف علي الطويل، مج1، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة 2011 م، ص 63.

55 – حاتم محمد محاميد، دراسات في تاريخ القدس الثقافي في العصر الوسيط، ص 143.